وقبل أن يأتي دور الرّجل الذي يحمل رأسي، تملّكني شعورٌ غريب. ربّما سيبوح رأسي بكلّ ما كنتُ أفكّر به، وعند ذلك ستكون النتيجة قاسية حقّاً، لأنّني سأكون لقمة سائغة بين الألسن المهذارة والأنياب الحادّة.

حدّق الرّجل بعينيّ البارقتين، ونطق بلساني الفصيح:

ـ أنا الذي رأى وسمع ولم يتكلّم.

تململ الرّجلُ المهيب. ارتبك الرّجال. أدركتُ أنّ رأسي لايزال ثقيلاً مثل كرة فولاذيّة، فهو ينتصب بثقة وثبات وقوّة من على جسد ذلك الرجل الخاوي الذي يجلس في مواجهتي تماماً.

تابع رأسي مِنْ على جسد ذلك الرجل الخاوي:

ـ أنتم أيُّها الرّجال لستم برجال، يجب أن تتحسّسوا جباهكم، هناك نتوءان بارزان في كلّ جبهة من جباهكم، أليس كذلك؟!

وبحركاتٍ لاإراديّة تحسّس الرّجال جباههم، فوجئ كلٌّ منهم بأنّ له قرنين صغيرين. احتجّ أحدهم، أعقبه آخر، ثمّ تعالت أصوات الرّجال الآخرين بالاحتجاج صاخبة لاهجة في القاعة:

ـ انتهازي.. وصولي.. طفولي.. يميني.

دقّ الرّجل المهيب بقبضة متماسكة على مقدّمة الطّاولة المستطيلة دقّات قويّة متعاقبة. فالتزم الرّجال الصّمت، وخيّل إليّ أنّ أفواههم قد أُلجمت، وأنّ ألسنتهم قد عقدت.

علّق الرّجل المهيب:

ـ حسناً.. استمرّ أيّها الرّأس في الاعتراف.

تكلّم رأسي بنبرة واثقة:

ـ أنتم أيُّها الرّجال لستم برجال خُلّص.. هناك ندبة سوداء داخل كلّ منكم من الجهة اليسرى.. فليبصر كلّ واحد منكم ندبته السّوداء.

عندما أبصر الرّجال كلّ منهم الندبة السّوداء، انفجرت أصواتهم من جديد، متدحرجة على الطّاولة المستطيلة، ترتطم بعضها ببعض، وسرعان ما ترتدّ خائبة منكسرة. كانت عينا الرّجل المهيب تتألّقان بزهوٍ وكبرياء أشبه بعينيْ صقر مليئتين بالإباء والشّموخ. وكانت أصواتهم تتناهى إليّ أشبه بنعيق الغربان، ونقيق الضفادع، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، وخوار البقر، وأصيص الفئران.

صاح الرّجل المهيب بصوتٍ قويّ سرعان ما طغى على تلك الأصوات الهجينة:

ـ صمتاً يا أشباه الرّجال العراة.

عندما ران الصّمت من جديد، أدركتُ أنّ رأسي قويّ غير قابل للاختراق، وخيّل إليّ أنّه أشبه بكرة فولاذيّة تهدّد شباك الخصوم.

تابع رأسي:

ـ في رأسي أحياء أموات، وأمواتٌ أحياء، رجال رجال، ورجالٌ أشباه رجال، ومثقّفون مثقّفون، ومثقّفون أُمّيُّون، وفقراء فقراء، وفقراء أغنياء، ومجرمون مجرمون، ومجرمون أبرياء...

ثمّ صمت رأسي لحظة، ومالبث أن نطق:

ـ أيّها الرّجل المهيب: في رأسي سيف معلّق بشعرة، قد تنقطع الشّعرة، ويهوي السّيف على الرّقبة.

عقّب الرّجل المهيب:

ـ والآن.. اخلعوا رؤوسكم.. هذا هو الرّأس.. وتلك هي الرّقبة.

قبل أن يخلع الرّجال رؤوسهم، خلعتُ عنّي الرّأس المستعار، لأنّي لم أفقه منه شيئاً غير الرّغبة لحظة الانتصاب.

وعندما وضعتُ رأسي على جسدي من جديد، تحسّستُ عنقي. تذكّرتُ أنّه رأسي، وصحوتُ من كابوس ثقيل.

بغداد

٣ قصص قصيرة

محمود عبد الوهاب

يحدث هذا كلَّ صباح

أراقبهما، عادةً، كلَّ صباح من الرّصيف المقابل، حين أكونُ أنا بانتظار السّيارة التي تنقلني واثنين من زملائي إلى الدّائرة، ويكونان هما بانتظار باص الشّركة. تأتي هي قبله دائماً، تتوهّج أمامي بثوبها الأصفر ذي الأكمام المخروطيّة (لم ترتدِ هذا الثّوب اليوم). تتريّث عند باب الزّقاق مستطلعة بحذرِ طائرٍ صغيرٍ، ثمّ تنقل خطوها، بحذر أيضاً، على الرّصيف... حتّى إذا ما وصلت إلى منتصفه وبدأت تزن تأثيرها في المارّة استأنفتْ سيرَها بثبات لتجتاز حديقةً عامّة مهجورة ومخبزاً وثلاثة دكاكين أو أربعة ومجموعةً من الشّقق المتلاصقة كعربات القطار، فتتباطأ في سيرها، وتستقر بعد بضع خطوات على حافّة الرّصيف المقابل، عند شجيرة مسيّجة بالقصب.

فجأة يظهر هو مسرعاً في سيره، كَمَنْ يريد أنْ يصل إلى مكان معيّن في وقت محدّد. من أين جاء؟. وكيف؟. هكذا أتساءَل، من دون جدوى، كلَّ صباح، كأنّ يداً حاذقة حشرته في غفلة عنّي بين هؤلاء المارّة ثمّ تركتْ له الخيار ليواصل سيره إليها على الرّصيف المقابل.

عندما يظهر هو في الشّارع تكون هي قد لحظتْ قدومه من مكانها عند الشّجيرة المسيّجة بالقصب. يطيل واحدهما النّظر إلى الآخر، ثمّ يلتفت كلّ منهما في آن واحد، إلى جهة مغايرة. هي تتشاغل بالنّظر إلى الجهة المعاكسة، وهو يستأنف سيره متحاشياً معارفه من المارّة، كأن له دوّارة ريح تغيّر زواياها في الوقت الذي يشاء. وحين يتشبّث به أحدُ معارفه وهو في عجلته، تدرك هي ـ من اضطرابه ـ أنّه يختصر آداب المجاملة ليلحق بها هناك، عند الشّجيرة المسيّجة.

الآن، يقفان معاً أمامي على الرّصيف المقابل وسط نقاءِ هواءِ هذا الصّباح: عاشقيْن جيء بهما من عصر بعيد حالم ليشقيا بنكد الفضوليين من المارّة ذوي الوجوه المحروقة الجافّة، هو بقميصه ذي الأزرار البرّاقة، وهي بثوبها الأصفر ذي الأكمام المخروطيّة. (آه.. لِمَ لا أستطيع أن أتصوّرها إلاّ بهذا الثّوب مع أنّها لم ترتدِه هذا اليوم؟.).

امتياز العمر

كعادته، صباح كلّ جمعة، دخل غرفة مكتبته. السّتارة الكحليّة تهتزّ نهاياتُها في هواء ذلك الصّباح من أيلول. ومن المكان الذي تتربّع فيه على السّتارة زهرةُ بنفسج مطرَّزَةٍ بخيوطٍ قبوائيّة وصفر، تنسلّ أشعّةُ الشّمس الفاترة لتُسقط ضوءها الذي يشبه ألوان عصير الفاكهة على منضدة الكتابة حيث تكدّست المجلاّتُ والكتبُ والصحف. ابتسمَ عندما رأى تزاحمَ العالم في بقعة صغيرة من منضدته: سارتر، وبومارشيه، وسقراط، وكلودسيمون، وفؤاد التكرلي، ودوراس، ومذكّرات شارلي شابلن. ولكي يأخذ مكانه وسط هذه الفوضى بدأ العمل، فأرجع الكتب إلى أماكنها الصحيحة: وضع سارتر وسيمون ودوراس والتكرلي في الرفّ المخصص للرّواية، ونقل بومارشيه إلى جماعة المسرحيّين، وأودع شابلن بجوار مذكّرات كازنتزاكي وهنري ميلر وسومرست موم، وحشر متعمّداً سقراط ـ ذلك الجدلي الذي أتعبه ـ بين عدد من كتّاب الدّرجة العاشرة التي لا تفهم تغريده (قال: لقد قتلتُه!). ثمّ استرخى على كرسيّه ذي المسندين ليبدأ دورة جديدة.

استوقفته مجموعةٌ من الرّسائل الخاصّة. رسائل زرق أنيقة اعترضت طريقه عندما كان يبحث في درج مكتبته. عدّل من جلسته، وتناول نظّارته الطبيّة كأنّه يستعد لاتّخاذ طقس خاص بها. تفحّص الرّسالة الأولى: ماضٍ بعيد يهجم عليه بتفاصيله كصديق مهاجر عاد تواً. تناول الرّسالة الثّانية، كانت مسوّدةً بخط يده. أخذتْ قسماتُ الماضي البعيد تتجمّع أمام عينيه في صورة فتاة جريئة كانت تلتقيه على درّاجتها الهوائيّة كلّ مساء في محلّته الشّعبية. وقبل أن يطوي المسوَّدة قرأ: «هل تدركين ماذا يعني أن يفترق أحدنا عن الآخر؟. إنّه موتي المحقّق!. إنّ الحياة من دونك لا تطاق!». خلع نظّارته الطبيّة وابتسم. وفي الوقت الذي كان يعيد فيه المسودة إلى حزمة الرّسائل التفت كأنّه يخاطب صديقاً يجالسه: «هل أنا حقّاً ذلك الذي كتب هذه الرّسالة؟!». وبأعصاب باردة نهض من مكانه ليواصل ترتيب غرفته. وكانت أشعّة الشّمس تتحرّك نحو النّافذة نصف المفتوحة متسلّلة إلى قماشة السّتارة الكحليّة لتنسلّ على نحو متزامن مع دقّات ساعة الحائط.

نعـي

الجريدة مفروشة بين يديه، والعرق، في الكأس، بارد متخثّر. كيف استطاع هذا الخبرُ أن يقفز إلى عينيه من بين أسطر الجريدة؟ أعاد قراءة الخبر وتوقّف عند الاسم يتأمّل ملامح صاحبه. خصلة شعره المتدلّية على جبينه وأنفه الأنثويّ، وزمالة أربع سنوات في الكلية عاشا فيها معاً يكتبان القصّة ويترأسان اللّجانَ الثّقافيّة. تذكر كما لو يرى الآن: ساحةَ الكلية الفسيحة، وحدائقَها الصّغيرة المدوّرة، ومدرّجاتها الأنيقة، وجوَّ المكتبة الصارم، وذلك الموظّفَ الشّاحب الذي كان ينفض الغبار بأطراف منديله عن الكتب ويعوم وراء مجرّة من المصابيح... وهو هناك في زاوية خافتة الضّوء ينعم بهدوءٍ مثالي، ويتابع بمتعة مناقشاتِ طلاّب الصفوف المتقدّمة. ها قد مضتْ عليه سبع عشرةَ سنة منذ تخرّجه، شغلته الحياةُ بهمومها، وأخذت الزّوجة والأولاد والوظيفة منه كلَّ وقته. ماذا بقي منه؟. وقع بصره، مرّة أخرى، على خبر الوفاة في مربّعه الصّغير المحدود من الجريدة. تحسّس قلبه هو الآخر، وتذكّر أنّه كثيراً ما كان يشكو منه، وأنّه راجع الطّبيب مرّات كثيرة. تذكّر زوجته وأولاده، وعزم من هذه اللّحظة على أن يترك التّدخين والسّهر والعرق وأن يحرص على صحّته من أجلهم. رفع رأسه وأبصر من خلال زجاج النّافذة المضبّب يوماً رمادياً بارداً بلا ريح، ورجلين يدخلان الحانة. كان أحدهما طويلاً ذا وجه ناتئ العظام، والثاني ضئيلَ الجسم. أمالَ ناتئ العظام رأسَ مظلّته النّحاسيَّ المدبَّب، وفيما هو يقترب من المائدة التي كان يجلس عليها ضغط بأصبعيه على النّابض ودفعه إلى الأسفل فانثالت قماشةُ المظلّة على العصا الملساء وتطايرت قطراتٌ من ماء المطر.

عبَرَ المائدة فاجتاحه انقباضٌ شديد، وأخذتْ عتمةُ الحانة وعفونتها تطبقان عليه. تململ في مكانه، وكمن يهرب من مأزق نادى النادلَ بسرعة وطلب ربع عرق آخر على أن يبدأ بترك التّدخين والسّهر والعرق من الغد.

بدر شاكر السّياب

قصائد

إختارها وقدم لها
أدونيس

دار الآداب
١٩٨٧